المذاهب الاجتماعية الحديثة

للمستر كليلند

مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الاميركية بالقاهرة

— ٢ —

سير التحول الاجتماعي

لننظر الآن في فعل التحوُّل الاجتماعي . كل مَنْ في هذه الغرفة رأى في اثناء حياته تحوُّلاً في الاوضاع الاجتماعية عميق الاثر . ففي الناحية الصناعية شهدنا استعمال المصباح الكهربائي ، والتلفون ، والاتوموبيل ، والطيّارة ، والراديو ، والصور المتحركة ، ولمسنا اثرها كلها في طريقة تعاطينا للاعمال ، وتمتعنا بالدين ، وملاهينا وحياتنا البيتية ، وقيام الدولة بما عليها . وقد استخرج علماء الاجتماع سنّة التحوُّل الاجتماعي كما تنطبق على امم الغرب فاذا هي : اذا بدأنا بجمعية مستقرّة متزنة ، فادخال استنباط او اكتشاف ، يقلب اوضاعها ، لتعذر معاشاة هذه الاوضاع للاحوال الجديدة الناشئة عن هذا الاختراع ، ثم تحصل الملاءمة بين الاوضاع والاحوال الجديدة وبهذا ذلك تحوُّل في افكار الجمعية مجاراة للاساليب الجديدة . فالسنّة اذاً تشتمل على المراحل التالية : — الاستنباط او اقتباس شيء جديد — فاضطراب الاوضاع الاجتماعية — فملاءمتها — فالتحوُّل الفكري . ويطلق على هذا التأخر في تحوُّل الافكار « البطء الفكري » . واليك المثل . ففي اواخر القرن الثامن عشر وضع جورج وشنطن خطة سياسية قومية للولايات المتحدة الاميركية مآلها ان تجتنب هذه الولايات الاشتباك في شؤون اوربا السياسية . وكان يفصلنا عن اوربا حينئذٍ محيط عرضهُ نحو ثلاثة آلاف ميل ، فلم يكن ثمّة ما يبعثنا على العناية بشؤون اوربا . فلاءمت اميركا نفسها لهذه الخطة وجرت عليها بضع سنوات . ولكن المكتشفات والمخترعات المتتالية قصّرت المسافة بين اوربا واميركا ، فهي الآن بالمخاطبات التلفونية اللاسلكية لاشيء ، وبالطيّارة لا تعدو ثلاثين ساعةً او اقل . ثم ان اصحاب المعامل من الاميركيين قد صنعوا بضائع تفيض عن حاجة السوق الاميركية ، فهم مضطرون ان يبيعوها

في اسواق خارج بلادهم . وهذا درُّ على الاميركيين ثروة ، لم يدروا ما يفعلون بها في بلادهم فهم يثمّرونها في الخارج . وبازدياد هذه الروابط الاقتصادية والثقافية تعظم عنايتهم ، ويشتد ارتباط مصالحهم بشؤون اوربا السياسية والاجتماعية ، بل بشؤون العالم . ولما كانت اميركا دائنةً لمعظم الدول الكبيرة ، وامة ذات انتاج واسع النطاق فانها استرعت عناية امم اوربا كلها واشتبكت معها . ولم يكن في امكان جورج وشنطن ان يتصوّر كلَّ هذا او شيئاً منهُ . وقد لا تمت منشآتنا الاجتماعية والعقلية هذه الحالة الجديدة ، والاوضاع السياسية آخذة في هذه الملاءمة أخذاً بطيئاً . ولكننا من الناحية الفكرية لا نزال متأخرين عن مجاراة التحوُّل المذكور ، ونحن الآن لا نسلّم باننا مرتبطون ارتباطاً وثيقاً ببقية العالم . ولا بدَّ ان يلحق التحوُّل الفكري بالتحوُّل الاجتماعي السياسي

هذا هو سير التطوُّر الاجتماعي السويّ في بيئة محافظة ، او في جماعات مستقرّة حيث تكون

عكس التطور الصحيح

ولكن اذا نظرنا الى سير التحوُّل الاجتماعي الجاري الآن في بعض البلدان رأيناهُ يختلف عما تقدَّم . فاذا كانت امة متأخرة في ناحية اوضاعها ومنشآتها الصناعية ، كالصين او روسيا ، ثم اخذت فجأة باسباب انقلاب فكري سريع ، مبتدئة في المرحلة الاخيرة من مراحل التحوُّل الاجتماعي — اي التحوُّل الفكري — قبل ان تقطع المراحل السابقة لهُ من الاستنباط وملاءمة الاوضاع الاجتماعية للمستنبطات الجديدة — فالنتيجة انفجار واضطراب . وما يحدث هو اقتباس الآراء الحديثة من الامم الغربية التي اصبحت تلائمها بمقتضى سنّة التحوُّل المذكورة ، فتطبّق على الاوضاع القديمة في البلاد المقتبسة فلا تنطبق ، وبدلا من الحصول على ملاءمة تدريجية تكون النتيجة ثورة عنيفة كما حدث في العهد الحديث في روسيا والصين واسبانيا والهند وجنوب اميركا . أفنستطيع ان نرى في هذا بعض تعليل للقلق الحالي في مصر . ان شعباً عددهُ ١٥ مليوناً — ٩٠ في المائة منهُ ، يعيش على مستوى من الثقافة ، قد ثبت واستقرّ من مئات بل من الوف السنين ، بما في ذلك وسائلهم الميكانيكية ، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية وآراؤهم العقلية والدينية ، كلها كوّنت واستقرت بما يلائم معيشتهم احسن ملاءمة — يقطن بلاداً هي طريق عالمية ، يجتازها الاوربيون ، وللاوربيين ثقافة مختلفة ، اكثر تعقيداً في بعض نواحيها واشد بساطة من نواحٍ اخرى . واذ تلمس هذه الثقافة المختلفة اللماعة (وسر قوتها يغلب ان يكون في مستنبطاتها) مصرَ تجذب اليها ١٠ في المائة من ابنائها فيقتبسون طائفة من اساليبها :— لاحظ التغيُّر في الملبس ، ووسائل المواصلات والمخابرات ، واللغة

وطرق المعيشة ، واتفاق الوقت الفراغ ، بين المصريين الذين اخذوا بالحضارة الاوربية

فاذا عبرنا عن هذا الفصل بالفاظ اجتماعية قلنا ان هذا الجانب الصغير من الامة المصرية قد اقتبس بعض المميزات الفنية والصناعية المتطرفة بعض التطرف ولاءموا ملائمة سريعة بينها وبين طبائعهم وافكارهم . ولكنهم اذا حاولوا ان يطبقوا بعض هذه الافكار على سواد الامة لقوا من التباين في الافكار ما يفضي الى النزاع ، لان السواد لم يتبع في تحوله طريق التطور المادي اولاً فالتحول الفكري

اتجاه التحول أو التقدم

لنعد الآن الى موضوع التحول الاجتماعي ولنعالجهُ من ناحية التحوُّل وغايته . هنا ندخل ميدان « ادب النفس » الذي يعالج العلاقات الاجتماعية كما يجب ان تكون ، وكيف تحقق ذلك . هنا نجد اختلافاً في الآراء والمذاهب ، الدينية وغيرها ؛ ولكل جماعة اقتراح أو طريقة تعتقد ان فيها العلاج الناجع . وقد دعا بعضهم اتجاه التحول الاجتماعي بالتقدم اذا كان هذا الاتجاه متفقاً مع آرائهم الادبية — وبالانحطاط — اذا كان مخالفاً لها . ولكن هل يمكن ان نتفق على تحديد معنى « التقدم » ؟ اني اشك في امكان ذلك الآن أو في المستقبل القريب : فاننا متفقون ان ثمة تحوُّل ، ولكننا لسنا على يقين هل هذا التحوُّل « تقدم أو لا . ونحن في حاجة الى التفريق بين « الحضارة » و« التقدم » . فانهما ليسا شيئاً واحداً . ان الحضارة تشير الى التقدم في اساليب الصناعة على الاكثر ، في كثرة الالآت الجديدة ، وزيادة البراعة في استعمالها

اما القول بان الحضارة تحسّن بحكم الطبع العلاقات بين الانسان وتمهّد سبيل التقدُّم الاجتماعي فقول لم يقم عليهِ دليل بعدُ . والواقع ان الحرب العالمية ، اثبتت نقيض ذلك ، والضائقة المالية والصناعية الآخذة بخناق العالم الآن ، جلت لنا الضعف المستحكم في علاقات الناس اذا قيس بارتقائهم الصناعي والفكري . وقد حاول احد اساتذتي السابقين — الاستاذ سنغر استاذ الفلسفة في جامعة بنسلفانيا — ان يوفق بين التقدم والارتقاء الصناعي في كتابهِ « المفكرون المحدثون والمشكلات الحالية » فقال « ان التقدم يقاس بدرجة تعاون الانسان في غزو الطبيعة » فهو يشير الى علاقات الناس بعضهم ببعض في قولهِ « تعاون الانسان » والى « الارتقاء الصناعي » في قولهِ « غزو الطبيعة » وهو حد جامع اذا شمل لفظ « الطبيعة» الانسان كذلك واظن انهُ يقصد بها ذلك

مسألة السكان

ورغماً عن الصعوبة التي نكابدها في تحديد معنى « التقدم » اريد ان اذكر بعض نواحٍ من علاقات الناس بعضهم ببعض يستطاع تحقيق التقدم فيها ، بانياً أفكاري على بعض الحقائق الحديثة المكتشفة في علم الاجتماع

فاولاً ما يرتبط بعدد الناس أو ما يعرف « بمسألة السكان » . لنفرض وجود جزيرة صغيرة مساحتها ميل مربع ينمو عليها قدر سويٌّ من النباتات المتنوّعة وتعيش فيها طوائف من الحيوانات . ولكن ليس ثمة على سطحها ناس . انقل اليها رجلين فيتاح لهما الحياة عليها ردحاً من الزمن . ولكن اذا كانا طموحين ويرغبان في ترقية حالهما لقيا في ذلك اشدَّ المصاعب لعجزهما عن الحصول على من يساعدهما في سعيهما ، فهما اذاً يتوقان الى طائفة من الناس تساعدهم في استثمار الجزيرة . فمكان الجزيرة في هذه الحال اقلُّ مما يجب ان يكونوا . ثمَّ لنفترض ان سفينة حملت الى الجزيرة طائفة من المهاجرين ، عددها بضع مئات ، فنزلوا في الجزيرة واستقروا على سطحها ، فتمَّ للرجلين المساعدة اللازمة — ولكنها في هذه الحال قد تزيد عمَّا يلزمها ، لان استهلاك السكان الجدد لموارد الجزيرة الغذائية اسرع من تجديدهم لها ؛ وحينئذٍ نرى الرجلين الاولين يندبان سوء الحال وكثرة السكان وشح الموارد . فمكان الجزيرة في هذه الحال اكثر مما تكفي لهم مواردها . واخيراً يجد الرجلان الاولان وسيلة لارجاع معظم المهاجرين وابقاء نحو مائتين منهم فقط ، لانهم يحسبون ان موارد الجزيرة تكفي معيشة هذا العدد من الناس على احسن حال ؛ ولان هذا العدد يكفي للقيام بكل الاعمال اللازمة . فمكان الجزيرة في هذه الحال يبلغون « العدد » الامثل أو المستوى الامثل (optimum)

ويبدو كأن هذا المثل يمكن تطبيقهُ على اي بلاد . فثمة عدد من السكان في كل بلاد ، اذا قل تأخر تثمير مواردها الطبيعية فيخسر الاهلون ، واذا زاد تعذر على البلاد تزويدهُ بكل ما يلزم من ادوات للمعيشة على مستوى معين فيهبط المستوى العام . وعلى كل امة ان تبحث عن العدد الامثل من السكان الصالح لبلادها وهذا البحث يقوم على اساس «مستوى المعيشة » و« درجة الثقافة » التي تودّ ان يتمتع بها ابناؤها . ومن الواضح انهُ اذا هبط مستوى المعيشة زاد عدد السكان الى ان يبلغ هبوطهُ درجة يفتك عندها الجوع أو المرض بجانب كبير من الامة . واذاً فعدد السكان الامثل في اي بلاد يختلف باختلاف وجهة النظر. فالحكومة الامبريالستية التي تتطلب عدداً كبيراً من الجنود لا يكلفونها نفقة كبيرة ترغب في شعب كبير يعيش على مستوى واطٍ جداً . ومن ناحية الدين ترغب الكنيسة مثلاً في طائفة كبيرة من المؤمنين لتزحم المؤمنين وتخرجهم . واذا نظرنا الى المسألة من الناحية الاقتصادية

وجدنا ما يسوّغ تحديد السكان لكي يتمتع الناقون بدخل وافر. ثم اذا نظرنا من الوجهة الادبية وجب ان يكون السكان بحيث يضطر كل فرد الى العمل الشاق ويكون دخلهُ كافياً لحاجاته الضرورية فلا يفيض منهُ ما يبذره في التمتع بالملاهي والمفاسد. والمقرر ان الميل المربع في بلاد زراعية يكفي عدداً من السكان اقل من العدد الذي يكفيه الميل المربع في بلاد صناعية. وقد يحسن بجماعة من الجماعات اذا استطاعت، ان تعين مستوى معيشة ابنائها والحد الادنى لحاجاتهم الاجتماعية ودرجة ثقافتهم وعلمهُ جرًّا ثم تسعى الى تعليم الناس المعيشة على هذا المستوى. فخطة « اطلاق حرية العمل » وما نجم عنها من السير على غير هدى، منارة كالخطة العمياء التي ترغب في زيادة السكان على اي حال ومن دون اي نظر الى مستوى معيشتهم، وهذا في الوقت نفسه ضار كالدعاية الى تحديد السكان وضبط التناسل المطلقين من كل قيد

الزيادة والنقص والتحرير

والباحثون الآن عاكفون على درس مسألة السكان، وقد اسفرت مباحثهم عن حقائق كثيرة، قد تفضي اخيراً الى استخراج احكام اجتماعية. فنحن نسمع مثلاً، ان سكان الارض يزيدون زيادة سريعة تجعل الجماعة العامة امراً لا ندحة عنهُ بعد بضع سنوات. ويرى « نبز » Knibbs أن سكان الارض وعددهم ١٩٥٠ مليوناً اذا مضوا يزيدون بمتوسط زيادتهم في القرن التاسع عشر (اي ٨٦٤ر٠ في المائة) (متوسط الزيادة في مصر في العشرين السنة الاخيرة بلغت ١ر١ في المائة) بلغ عددهم بعد ٢٤٠ سنة ١٥٦٠٠ مليون ولكن هذا متعذر لأنهُ يعني ان ازدحام السكان في كل بقعة من بقاع الارض يكون حينئذٍ مثل ازدحامهم في حي العباسية بالقاهرة الآن او ٦٣٠٠ نسمة في الميل المربع الواحد وهو ستة اضعاف متوسط ازدحامهم في القطر المصري. ولا بدَّ من حدوث حادث قبل بلوغ هذا العدد. وبفضل تقدم المواصلات والسيطرة على الاوبئة والتنظيم الصناعي، زاد سكان العالم في القرن الماضي زيادة تحمل على التفكر فيما قد يحدث اذا اطردت هذه الزيادة. فبعضهم يعزينا بقولهم انهُ بارتقاء الحضارة يقل متوسط المواليد، وانهُ باتساع نطاق التعليم تكثر المستنبطات التي تجعل الحياة اكمل رفاهية وأقل نفقة، او تحدث كارثة طبيعية او تنشب حرب، فيقل عدد السكان

قد يكون ذلك . . .

لننظر في مسألة قلة المواليد. فانها قد تعني ضعف الخصب الانساني، او السيطرة على التناسل الناشيء عن ارتفاع مستوى المعيشة. أو قد تكون نتيجة مماشية لانخفاض متوسط المواليد القائم على ترقية وسائل الصحة. فلنفرض وجود جماعة عددها ٣٠٠ الف نسمة. ففي سنة ما يولد فيها ٣٠٠٠ مولود ويحدث ١٠٠٠ وفاة. فهذا يعني ان متوسط المواليد فيها ٣٠

في الالف ومتوسط الوفيات ١٠ في الالف فعدد الجماعة يكون في آخر السنة ١٠٢٠٠٠ نسمة. ولنفرض ان عدد المواليد والوفيات في السنة التالية مثله في السنة السابقة فالمتوسط السنوي في السنة التالية اقل منهُ في الاول فيبلغ للمواليد ٢٨٫٤ وللوفيات ٩٫٨ وقلتهُ تزيد بزيادة العدد الاصلي ؛ والعدد الاصلي يزيد بزيادة طول الحياة . ذلك ان زيادة طولها تفضي الى بقاء كثيرين على قيد الحياة فوق السن الذي يخلف فيهِ النسل . وقد بلغ من اضطراب الطرق المستعملة لتحديد متوسط الوفيات والمواليد ان مال بعض الباحثين الى اهمالها والبحث عن وسائل ادق . فالاستاذ كوزنسكي يجعل اساس طريقته النساء اللواتي في سن التوليد اي من سن ١٥ الى سن ٥٠ ويقابل عددهنَّ بالبنات اللواتي يخلفن ويتعهدن الى ان يبلغن سن التوليد فاذا كانت كل انثى تخلف بنتاً تحمل اولاداً او ولدين ليحلاَّ محل الام وزوجها فعدد السكان مستقر على حالهِ واحدة لا يزيد ولا يقل مع ان تقدم وسائل الصحة العامة تجعله يزيد زيادة ظاهرة. لان هذه الزيادة اذ تبلغ حدها الطبيعي تقف عند حدٍّ وتستقر. وقد اثبت كوزنسكي ان هذه « الزيادة » اقل من واحد صحيح في غرب اوربا وشمالها اي ان شعوب هذه البلدان آخذة في النقص . ومعظم هذا النقص في بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا وتشكوسلوفاكيا واستونيا ولتفيا . اما البلدان الاخرى كايطاليا وبلغاريا والمجر واسوج ودنمارك وفنلندا فاما مستقرة بلا زيادة ولا نقص او ان زيادتها قليلة جداً . اما البلدان الصقلبية كروسيا فآخذة في الزيادة زيادة ظاهرة . ويقدَّر ان النقص يبدأ فعلاً في فرنسا سنة ١٩٣٧ وفي انكلترا سنة ١٩٤٢ وفي المانيا سنة ١٩٤٦ والاحصاءات التي يمكن الاعتماد عليها في الولايات المتحدة الاميركية تدلُّ على ان عدد السكان فيها مستقرٌّ فاذا نقص متوسط المواليد عما هو عليهِ الآن افضى الى نقص في عدد السكان . فيظهر مما تقدَّم ان الام التي منيت بمشكلات العمال العاطلين الناشئة عن زيادة السكان على العدد الامثل مقبلة على حلٍّ بيولوجي لهذه المشكلات بنقص طبيعي في عدد السكان

* * *

لم يجر لحد مثل هذه المباحث في القطر المصري . وقد تصبح ممكنةً بارتقاء فن الاحصاء فيهِ . وانما عملت حسابات وضحت في اطلس مصر وبعض مطبوعات الحكومة . وجدير بالذكر ان مصر من اكثف البلدان سكاناً يقطنها نحو ١١٠٠ نسمة في كل ميل مربَّع من الارض المنتجة ويقابل ذلك نحو ٧٠٠ في انكلترا و٦٥٠ في بلجيكا ونحو ٧٠٠ في جاوى . ويذهب بعض علماء الاقتصاد الى ان وجود ٨٠٠ نسمة في ميل مربع من البلاد الزراعية هو الحدُّ الاقصى فاذا زاد عددهم عن ذلك اصبحوا في خطر من الجوع . وكذلك اقترح بعضهم ان تحل هذه العقدة في

مصر باستيراد الآلات الزراعية . فاذا استعملنا الآلات الزراعية هنا مدى استعمالها في الحقول الاميركية اكتفينا بنحو ٦ من عدد الفلاحين المشتغلين بالزراعة وعددهم نحو ٣٤٨٠٠٠٠ — اي اكتفينا بعمل ١٨٠٠٠٠ فلاح — والباقون — اي نحو ٣٠٠٠٠٠٠ر٣ يتفرغون لاعمال اخرى في الصناعة اذا اتيحت لهم الفرصة أو يصبحون عاطلين . فالوجهة العملية نرى ان المشكلات المرتبطة بحالة الفلاحين الاقتصادية والثقافية والصحية ، هي في مقدمة المشكلات التي تسترعي عناية مصر الحديثة

السيطرة الاجتماعية

لم يبق عليَّ الا ان ابدي بعض ملاحظات تدور حول موضوع « السيطرة الاجتماعية » . فمن الواضح ان اتساع نطاق الجماعة الناشيء عن كثرة المستنبطات ، حتى يشمل جماعات اخرى ، وكثرة السكان التي تفضي الى اشتباك المصالح ، يقتضيان نظاماً من السيطرة . كانت القوة اولاً اساس هذا النظام اذ يُخضع القويُّ الضعيفَ لارادته . ولكن هذه الوسيلة اصبحت صعبة التطبيق فزادة التعقيد في علاقات الناس بعضهم ببعض . وكأن البشر ملزمون الآن ان يتخذوا من النظام الادبي اساساً بدل هذا الاساس المضطرب . فاتساع نطاق التعاون بين الافراد ، في بلاد واحدة أو بين سكان الارض — بين التجار والعمال والمشتغلين بالشؤون العقلية — اخذ يصبح امراً لا مندوحة عنهُ . فلا بدَّ للجماعة ان تتنازل عن بعض آرائها الخاصة ، ولا بدَّ للافراد من التنازل عن بعض ما يعرف « بحقوقهم » . ولكي يكون النجاح نصيب هذه السيطرة الادبية ، فلا بد ان يكون بمحض ارادة الناس . ولا بد من التعليم الذي يلتمس « طرائق التفكير » بدلاً من « موضوعات التفكير » . ولا نستطيع قبل اتساع هذا النوع من التعليم ان نطبق ما نعرفهُ عن نظام السيطرة الادبية . وحينئذٍ نصبح معنيين بتقدم النوع الانساني قاطبة عنايتنا بتحسين صنف القطن . فنحن نعلم اننا نستطيع تحسين الناس من ناحيتين — ناحية عوامل الوراثة بالتأصيل وناحية البيئة وهي تشمل احوال الحياة من التلقيح الى ساعة الوفاة . وقد يظهر لبعض الناس ان القول بالسيطرة على الوراثة سابق لاوانهِ الآن . ولعله كذلك . فقد لا نكون على جانب كاف من الحكمة يؤهلنا للعبث بأساس الحياة — العوامل الوراثية . ولكن محاولة تحسين البيئة اذا اخطأت لا تضر الانسان ضرراً باقياً . فنحن نستطيع ان نحوّل المجتمع ، بحسب فهمنا لمعنى التقدُّم ، اذا تمكنا من اقناع عدد كافٍ من الناس بصحة ما نقول . وهذا هو عمل المعلم والمهذب